إميل سيوران وسياسة كتابة الفلسفة -قراءة تحليلية لنصوص منتقاة.

م. د. حيدر ناظم محمد

كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية

Abstract

Can you categorize Ciran? We think that the classification of Siuran enters us in an area that leads us only to more labyrinths, and certainly we find ourselves more consistent and consistent with what one researcher says when you read the two columns we find ourselves in front of the formation of the Syuranat, of course there are two belts, but the field of operation and the language of writing must be It gives an impression of a striking Syuran variety, and not the style of chant but an urgent response to the present moment, constantly passing through the presence of Ceylon, which can not be captured in any way. In our humble opinion, this rebellious man presented a disturbing vision of all the current constants, a flood of accusations, gaps and loopholes that fill the space Enugad Na forced into the world infected with vacuum.

كلمات مفتاحية:

١. قراءة: وهي محاولة فهم نص من النصوص وفق منهج محدد.
٢. تحليل: احد المناهج العلمية الفلسفية الذي يعتمد ارجاع المعقد الى البسيط.
٣. اميل سيوران: اديب ومفكر فرنسي الجنسية، روماني الاصول له العديد من المؤلفات.
٤. سياسة الكتابة: هي مجموعة الاليات والانظمة المتبعة في عملية الكتابة.

مقدمة

يمثل سيوران ظاهرة ثقافية لصيقة بالفلسفة، وهي فريدة ومشاكسة تختزل بوضوح بالغ، القول بان الفلسفة اليوم تقع خارج أطر التقييد والتقليد الفلسفي التي اعتدنا جميعاً قراءتها وفهمها عبر خطوط الصدع القابعة في خارطة المشاريع الفلسفية الكبرى وخطاطاتها المعتادة، ان سيوران ذهب باعتقادنا الى ابعد من ذلك، حين عمد الى تفتيت خطوط الما بعد، حتى وان كان هذا الاتجاه (الما بعد) يدعي لا مركزيته، عبر تشكل مركزيات لا تتشكل الا لتزول، وذلك من خلال اقتناص سيوران تلك الجوانب الغريبة التي تسير باتجاهات معاكسة لكل ما هو مألوف، فاذا كان نيتشه قد دعا الى ضرورة اعادة النظر في العقل الغربي من حيث تمركزه حول ذاته، وتحرير هذا العقل من المقولات والشعارات الكبيرة التي حولته الى قوى غاشمة ذات صبغة آلية خالصة، الى تحرير الانسان من الاوهام والاصنام التي اختلقها هذا العقل عبر العيش في الحياة وارضنة الفكر ونبش الاصول من خلال جينالوجيا لا تبقي ولا تذر الا بالمقدار الذي يعيد للانسان كرامته المهدورة، واذا كان كانط من قبله قد احدث ثورته الكوبرنيكية من خلال عمله التشريحي الكبير للعقل البشري ومجاوزة ثنائية العقلي- الحسي، من خلال السبق الزمني للحواس، والمنطقي للعقل، ثم يأتي ماركس لاحقاً ليدعو الى تغيير العالم وليس الاكتفاء بتأويله، او ربما الارتهان للتحليل السايكولوجي الذي كشف عن هذا اللاواعي الذي يتحكم بشطر كبير من وعينا او قل وعينا كله، نقول اذا كان الامر كذلك مع اعمدة الفكر الفلسفي الكبرى، فان سيوران قد قلب الطاولة على كل تلك الكشوفات والرهانات رغم اهميتها عبر سؤال مركزي عدمي بامتياز لا يمكن ان يضاهيه سؤال اخر، السؤال عن سوء ان نكون قد ولدنا؟؟؟ فما العمل؟ وما جدوى كل ذلك الذي حدث وما زال

يحدث، كيف يمكن لنا ان نعيد صياغة شكل وجودنا المعلق عبر ولادتنا؟ ان سؤال سيوران عن الولادة، ليس سؤالاً عن لحظة انبثاق للكائن في العالم، كما يتصور ربما البعض، انما هو سؤال انطولوجي ذات ابعاد كوزمولوجية بامتياز، وهذا باعتقادنا ما يجعل من هذا الكاتب مفكراً يستحق ان نقف عنده، لفهم مسار السؤال الفلسفي في سياق عصره، ولكن الكاتب الذي يلج الى الفلسفة عبر الادب المستغرق بالتشاؤم والعبث واللاجدوى، وربما الفوضى، لذا ليس من الغريب ان نجد تلك القدرة الخارقة في تطويع اللغة كيف يشاء، انه ربما وكما يصف فوكو روسيل، آلة حربية بامتياز، قادرة على هدم المألوف واجتراح كل ما هو شاذ، لكنه قابل لان يكون محطة للتامل والتفكر، ان هذا الروماني الثائر وبصرف النظر عن الامتدادات النفسية لكتاباته، قد حقق امكاناً كبيراً للدخول للفلسفة من خلال اللغة بوصفها فلسفة والفلسفة بوصفها نثراً وادباً في ان واحد.

يسير هذا البحث وفق فرضية عمل اساسية تتمركز حول سؤال اساسي نعتقد ان كل كتابات سيوران تنطلق منه لتعود اليه، السؤال عن الولادة، المفهوم الذي يتضمن مشروعية انقسام أس التساؤل عن الحياة والعدم واللاجدوى، الولادة بوصفها حدثاً يؤسس لانطولوجيا الكائن البشري، ومن هذا السؤال كان لا بد لسيوران ان يمر على عدد من الفلاسفة ناقداً اياهم من خلال لغة غاية في الرقي ومنهجية تتكور في اللامنهج، هذه الفرضية لا تسعى الى تقديم اجابات لسؤال سيوران، ولا تقييم الحلول التي ربما اشار سيوران ضمناً لها، انما نسعى الى وضع كم ونوع من الاسئلة حول كتابات سيوران وتدور حول بؤرة سؤاله الاساسي، تلك الاسئلة ستبقى دون اجابات، لاننا ببساطة لا نملك لها اجابات، وفي حال توفر الاجابة بالتاكيد سيكف السؤال عن كونه كذلك، انطلاقا من اعتقاددنا الجازم ان مهمة الفلسفة عبر التاريخ هي طرح الاسئلة باستمرار دون الركون الى يقين اجابة محددة، وفي حال توفر اجابة لسؤال طرحته الفلسفة، فانها امام خيارات ثلاث لا رابع لها، الخيار الاول هو توقف الفلسفة عن اداء دورها الطبيعي، او ان تتحول الفلسفة الى ايديولوجيا مجموعة افكار مقدسة واجابات نهائية غير قابلة للنقد، او ان تتحول الاجابة الى فرضية وملاحظة وقانون علمي، والتاريخ مليء بالشواهد التي تؤيد ذلك.

لا ينقسم هذا البحث الى اقسام متعددة، كما هو معتاد، الا بمقدار يتوزع في سياق اسئلة عدة، هي فقرات اساسية لا غنى عنها في تناول سيوران، واضعين في اذهاننا التشتت واللامركزية التي تغص بها كتابات سيوران وهي ليست قصدية بقدر كونه سعي لجعل القاريء يسير وفق مساقات الكاتب الاساسية التي تتسم بكونها ذات صبغة شذرية لا يجمع بينها رابط بالضرورة، ولا تتضمن مقدمات ونتائج، ولا تعد بحلول لمشاكل، ان كتابات سيوران اشبه برحلة موسوعية في التاريخ لا تمتلك خرائطية واضحة المعالم رحلة في المجهول والغرائبية وربما حتى الهلاوس والتخيلات، رحلة غضب ومسيرة ثورة ربما يمكن ان تتحقق يوماً ما، في زمن ما، تتوزع محاور هذا البحث وفق سياق النصوص التي تم انتقائها والتي تتوزع بين فهم سيوران للفلاسفة او الفلسفة وموضوعاتها على قدر من المساواة، ممارسين في الوقت الذي نمارس فيه قراءة تحليلية لهذه النصوص عسى ان تسعفنا في التقاط الرابط الذي يوحد شتات نصوص سيوران على اقل تقدير في مجال انتقاء موضوعات او عينات التحليل التي تم انتقائها.

قبل الشروع في الحديث عن سيوران في اطار نصوصه، نعتقد اهمية ان نبين بمكان الفروقات التي ستكون حاضرة في سيرورة هذا البحث، فبين مفهوم القراءة ومعنى التحليل فروقات اساسية نفترض وضوحها لدى المتلقي، ولكن لا بأس من الاشارة الى بعض الفروقات الاساسية بين القراءة من جهة والتحليل من جهة اخرى، ففي الاطار العام يشير مفهوم القراءة الى ذلك الاطار العام الذي يتضمن جملة آليات معرفية وقدرات ذاتية يهدف الى اعادة انتاج النص من خلال استراتيجيات ومناهج متعددة ومتنوعة، الظاهراتية، البنيوية، الاركيولوجية، التاويلية، التفكيكية، الخ.... في حين يشير التحليل الى واحدة من الاستراتيجيات والوسائل التي تستخدم لقراءة واعادة فهم نص فلسفي وفق خطوات مرسومة بدقة وتسلسل منطقي يلتمس الحجة والبرهان في اثبات او نفي اطروحة او الدفاع عن فكرة او رسم ملامح للمفاهيم التي يتضمنها نص معين، بغية الوقوف على محددات واسس وأطر النص بمختلف اشكاله وآلياته التي ارتسمها لبلوغ هدفه وغايته واطروحته الاساسية؟

اذا وبحسب الفهم العام الذي اشرنا اليه سابقا من كون القراءة اطاراً منظماً لجملة من الاستراتيجيات او المنهجيات التي تهدف الى فهم النص، بمعنى هنالك قراءات متعددة وفق منهجيات متنوعة، كان نقول قراءة تحليلية، وقراءة تفكيكية، وقراءة بنيوية، فكل قراءة من القراءات تكون خاضعة لمنهج محدد وفق خطوات معينة، وكل منهج يمتلك خصوصية وفضاء اشتغال يختلف عن الاخر، فمثلاً نجد ان الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو وظف المنج الاركيولوجي(الحفري) في قراءة مفاهيم السلطة والجنون بوجه خاص، بينما اعتمد المنهج الجينالوجي، في قراءته لمفهوم الجنسانية في كتابه تاريخ الجنسانية باجزاءه الثلاث، وهذا الانتقال من منهج الى اخر ليس انتقالا اعتباطيا وانما لاعتقاد فوكو ان ما يصح من منهج في قراءة وتتبع مفهوم معين في حقبة معينة، لا يصح في قراءة مفهوم اخر، ربما ان الكاتب يتحكم بنسبة ولو ضئيلة في توقع نتائج بعينها عند اتباع منهج دون اخر، الا ان الثابت رغم هذه الثغرة، هو خصوصية المناهج والمفاهيم المراد قراءتها، ففي الوضع الطبيعي توجد هناك أطر نظرية واخرى عملية، الاطار النظري، يتحدث في هذا الذي كنا قد اشرنا اليه اعلاه في الفارق بين مفهوم القراءة والتحليل كمنهج، ويتضمن جملة من المفاهيم والخطوات والتعريفات التي توظف عادة في تحليل النص وكل خطوة من المنهج التحليلي هي بمثابة قراءة جزئية للنص تسهم مجتمعة مع باقي الخطوات القراءات الجزئية في تقديم قراءة عامة واعادة فهم و انتاج للنص المحلل او العينة المنتقاة، وهو اطار اجرائي بامتياز.

اما الاطار العملي، القسم الثاني، فهو الفضاء التطبيقي الذي يتم فيه ممارسة الخطوات التي ذكرت في الاطار النظري، وفي هذا الاطار اي الاطار العملي سيتم انتقاء عدة نصوص، وتطبيق كل ما ذكر في الاطار النظري.

ان لكل نص فلسفي جملة خصائص وميزات، تحددها طبيعة المجال، بمعنى ان يكون نصا يتناول العلم او الدين او السياسة او المعرفة، اضافة الى الاتجاه الذي ينضوي تحته كاتب النص، ناهيك عن مجموعة عوامل اخرى كثيرة، ولابد لكل نص ان يقوم على عدة محاور اساسية يرتكز عليها بنيانه، هذا ما نحاول ان نحدده في هذا البحث في نصوص منتقاة لـ سيوران.

يجب ان نذكر ملاحظة مهمة وهي ان المنهج التحليلي، انما هو مخصص لتحليل ومناقشة النصوص الفلسفية التي نعني بها الكتب المعروفة للفلاسفة، ولكن ذلك لا يعني عدم وجود امكانية انتقاء نص فلسفي واقتطاعه، كما سنرى لاحقاً، حيث تم اختيار ثلاثة كتب مترجمة لـ اميل سيوران وانتقاء نصوص محددة من هذه الكتب، لاسباب تتعلق بطبيعة البحث، فكل مجموعة نصوص تمثل جزءا من اجزاء بحثنا الذي بين ايدينا، هذه الكتب هي، تاريخ ويوتوبيا، المياه كلها بلون الغرق، مثالب الولادة.

سيوران، عذابات الانسلاخ والبحث عن اللامعنى.

ولد سيوران سنة ١٩١١ بقرية رازيتاري، احدى قرى ترانسلفانيا الرومانية، نشأ في مناخ غرس فيه روح المفارقة، الذي انعكس بشكل واضح في كتاباته فيما بعد، كان والد كاهن الطائفة الارثوذكسية في القرية، في حين كانت والدته لا تخفي سوء ظنها بكل ما يتعلق بالدين واللاهوت، وبين هذين القطبين المتقابلين نشأ سيوران الذي حمل الكثير من التقابلات المتناقضة لابوين ربما سيران باتجاهين متعاكسين، هذا التناقض الذي وسم كتابات سيوران والتي يحتار القاريء والباحث في فهمها او ربما تصنيفها في اطار اتجاه او مذهب فلسفي، او جنس ادبي محدد، في سنة ١٩٢١ اضطر للرحيل الى سبيو المدينة الكبيرة المجاورة لقريته حيث يعيش فيها خليط من الرومان والمجريون والالمان جنبا الى جنب، هناك حيث المعهد الثانوي الذي يدرس فيه سيوران، مثل هذا الانتقال والتحول انساخ اول من الجذور بالنسبة لـ سيوران حيث الانتقال من محيط الطفولة الى محيط اخر متنوع وغريب ومجهول لم يألفه من قبل.[١]

كان على سيوران تحمل نتائج التقابل غير العادل بين مزاج ابويه، كانت والدته ذات مزاج عصبي، شديد الحساسية، وهي مؤهلة لنقل سيوران وادخاله في انسلاخ آخر، وهذا ما حدث حين ثارت مشاعرها يوما قائلة لولدها " لو كنت اعلم ما سيؤول اليه حالك لاجهضتك منذ شهور الحمل الاولى" ربما هي كلمات عابرة تفوهت بها في لحظة غضب، لولا انها سقطت في اذني سيوران، الذي تقفها ورافقته الى سنوات حياته الاخيرة، فمن الممكن ان لا توجد على الاطلاق، لمجرد نزوة او رغبة، انه لم يوجد الانتيجة صدفة عابرة.[٢] وربما هذا ما نجده واضحا في اغلب كتابات سيوران يرددها بطرق مختلفة حيث يقول ما مفاده، انه من الممكن ان الرتكب جميع الاخطاء والحماقات باستثناء ان اكون أباً.

بعد مرور سبعة اعوام يغادر سيوران الى بوخارست لدراسة الفلسفة، حيث تتعمق لديه روح الاغتراب والتفرد وتبدأ لديه اعراض مرض الارق وفقدان القدرة على النوم تماما، وراودته فكرة الانتحار. الا انه وجد الحل مع نيتشه: تحويل ليالي الارق الطويلة الى وسيلة للمعرفة، افلا نتعلم في ليلة ارق واحدة طويلة ما لا يمكننا تعلمه في سنة كاملة من النوم؟ الا ان المفارقة التي حدثت مع سيوران واثناء تجواله في الليالي الباردة في الشوارع الخاوية قد ادرك بطلان الفلسفة فساعات الليل الطويل لا تفضي سوى الى نتيجة واحدة، حيز لا ينتهي من رفض الفكر للفكر، انها الوعي وقد ضاق بالوعي ذاته، اعلان حرب وانذار بوجه العقل، وهذا بالتاكيد هو التحول الثالث الذي غير مسار سيوران نحو وجهة اخرى لم نألفها مع غيره، وجهة اللامعنى وتجاوز العدمية بكل صورها التي نعرفها.[٣]

بين عامي ١٩٣٦-١٩٣٧، تفرغ سيوران الى تدريس الفلسفة بمعهد براسوف في برلين ونشر العديد من المقالات في مجلات مختلفة، واعتبر احد الاسماء الواعدة في الادب الروماني الشاب، وفي نهاية سنة ١٩٣٧ وقبل اسابيع من ظهور كتابه (دموع وقديسون) يحصل سيوران على منحة معهد بوخارست الفرنسي لاعداد اطروحة في الفلسفة بباريس ويسافر الى هناك، حيث يؤلف كتابه (غروب الافكار) كتابه الاخير الذي كتبه بلغته الام، وهنا تتمظهر المرحلة الخطيرة من التحول والانسلاخ، الانسلاخ من لغته، والدخول الى لغة اخرى، مع ما يعني ذلك من احساس بالاغتراب والوجع والتمزق، التفكير وفق منطق وثقافة وتاريخ ونحو لغة اخرى، انها ولادة وانسلاخ لكنه ولادة لكينونة سيوران الاخير في عالم اخر.[٤]

بعد رحلة صاخبة بالتمرد حافلة بالتأليف، استمرت اربعة وثمانين عاما توفي سيوران بعد صراع مع مرض العضال، في العام ١٩٩٥ بباريس، وقد ترك وراءه ثلاثة عشر كتاباً، ١- موجز التفكيك ٢- مقايسات المرارة(المياه كلها بلون الغرق) ٣- اغواء الوجود ٤- بحث في الفكر الرجعي ٥- تاريخ ويوتوبيا ٦- السقوط في الزمن ٧- الخالق السيء ٨- مثالب الولادة ٩- التمزق ١٠- تمارين الاعجاب ١١- اعترافات ولعنات ١٢- دموع وقديسون ١٣- على ذرى اليأس.[٥]

ترجم من هذه النصوص ثلاثة فقط، وهي ترجمات آدم فتحي، هي: المياه كلها بلون الغرق، تاريخ ويوتوبيا، مثالب الولادة، اضافة الى دراسة موجزة هي عبارة عن ملخصات تم انتقاءها من كل كتاب لـ سيوران وجمعت في كتاب واحد تحت عنوان لو كان ادم سعيداً ترجمة وتقديم محمد علي اليوسفي.

سيوران و ضمور المعنى

ان العبارة التي يسوقها سيوران " ارسطو، توما الاكويني، هيجل، ثلاثتهم مستعبد للعقل. المذهب اخطر انواع الاستبداد، في الفلسفة وفي كل شيء"[٦] ، توضح هذه العبارة بوضوح عن رفض صريح لـ سيوران لكل شكل من اشكال التمذهب في الفلسفة، بوصفه نظاما مغلقا من الافكار الثابتة، وهو في هذا ربما تلميذا نجيبا لـ نيتشه في معرض رفضه لكل اشكال تحويل الافكار الى انظمة مغلقة غير منتجة تحجب قدرة العقل على ممارسة دوره الطبيعي في النقد والتحليل والتفكيك لغرض مجاوزة فكرة الثبات، والارتهان الى فكرة الصيرورة كمبدأ هيرقليطي حكم فلاسفة جيل الاختلاف.

بقيت الفلسفة عند سيوران نشاطا فكريا شديد الصلة بالحياة. لا تنفصل بتاتا عن طريقة عيشه، وليس من المبالغة القول ان الفلسفة مع سيوران اعادت اكتشاف هويتها الاصلية في منحاها الهيرقليطي النيتشوي[٧]، اذا من الواضح ان منحى سيوران هو منحى انتقائي في تبني وجهة نظر محددة لوظيفة وعمل ومهمة الفلسفة، انه المنحى ذو النزوع النيتشوي القائم على الاختلاف، لا لغرض الاختلاف والمشاكسة الفكرية، بل لتأصيل فكرة اهمية التفكير بمعزل عن الاقانيم الثابتة، والتحرر من كل اشكال وانساق الاتساق بين الفكر والواقع، والتاسيس لكل ما هو متغير، بالاستناد الى الحاضر المتصف بالسيلان.

لذا ليس من الغريب ان يعلن سيوران صراحة انتماءه الى الخط الذي يستأنس بالكتابة القائمة على الاختلاف، " نحن عبدة الشذرة والندبة، ننتمي الى زمن اكلينيكي لا اعتبار فيه الا للحالات، ننكب على ما سكت عنه الكاتب، على ما كان يمكن ان يقول، على اغواره الصامتة... لا يسحرنا الا الفنان اللا متحقق.[٨]

من الجلي ان سيوران من اولئك الذين يسعون الى استنطاق النصوص لاستخراج المسكوت عنه في نصوصهم، وهو لا يهتم باولئك الذين يخترقهم الوضوح، بقدر انهمامه بكل اشكال الغموض الكامنة في مناطق اشتغال الوعي الانساني، عبر التقاطه لهذا اللا متعين وغير المتحقق وغير المكتمل فالحياة برمتها شكل برومثيوسي هيرقليطي، لا يمكن ان ترصد عبر انساق واقانيم جاهزة، كما ترصد حركة الكائن المتعين من قبل المراقبين، انه عالم مختزل في لغة رمزية لا يمكن التعبير عنها الا من خلال الشذرة العابرة، وتفعيل قدرة الاختزال والكمون التي يمتلكها الوعي المتمرد.

" في بداية الشباب نحاول ممارسة الفلسفة لا بحثا عن رؤية بل بحثا عن محفز، نجدّ في مطارة الافكار ونحدس الهذيان الذي انتجها. لا نحب في المفكر ال البهلوان. في نيتشه كنا نحب زرادشت، لقد اعتقدنا مع نيتشه بديمومة الشطح"[٩]

بالطبع ان ذلك لا يعني تقريرا منا بان هنالك نمط ونسق واضح يسير وفقه سيوران وبالتالي من الممكن وضعه في اطار نسق معين، فـ سيوران فيلسوف التناقضات الواضحة، والاختلافات، واللعب بكل ما يمكن اللعب فيه، وما لا يمكن اللعب فيه، هذه حقيقة يجب مراعاتها، لكن اساس مداخلتنا هو الاعتقاد بضرورة وضع مقياس اجرائي للعمل وفقه في اطار هذا البحث.

وبالفعل فان الارتهان الى فهم سيوران وفق مقياس اجرائي وافتراضي لا يقلل من فرصة القول بوجود نمط من الاتساق، وهذا ما يؤكده احد الباحثين بالقول" يمكن ان نقرا في نفس المصنف بل في نفس الفصل شذرتين متعارضتين، ولكننا سرعان ما نعثر في نفس الكتاب او الفصل او في موضع اخر على شذرة ثالثة لا اقول بانها توفق بينهما وانما تخفف من تعارضهما، على عكس ما يعتقد الكثير من المعلقين، لا يمكن اعتبار الكتابة المتقطعة الشذرية على الاقل في حالة سيوران، تشظ للفكر، بقدر اعتبارها اكثر ملائمة للذات الكاتبة الحرة، المنعتقة من كل مرجعية، المتحملة لمسؤولية تناقضاتها، والتي لا تستطيع التعبير عن كنهها الا عن طريق الكلمة المقطعية"[١٠]

لكن الطريف ربما هو اشارة سيوران في احد مقاطعه، الى مسألة الكتابة الشذرية، حيث لا يقدم اجابة مقنعة، ولا منطقية، انما يستند الى نوع من السفسطة، لتوضيح موقفه، الا انها سفسطة ومغالطة لا تهدف الى تحقيق هدف محدد، " لماذا الشذرات؟ سألني ذلك الفيلسوف مؤاخذا، بسبب الكسل، بسبب النزق، بسبب القرف، لكن لاسباب اخرى... وبما انني لم اجد منها سببا واحدا، اطنبت في تفسيرات بدت له جادة وانتهت باقناعه."[١١]

" انه لمساس بالفكرة ان نعمقها: ذلك يعني ان ننزع منها سحرها وربما حياتها"[١٢]

" في ترددنا علامة على نزاهتنا، اما يقيننا فلا يدل الا على دجلنا" وفي سياق متصل يقول " يعرف المفكر الغشاش من حصيلة الافكار الدقيقة التي يدافع عنها"[١٣]

والكثير من الجمل والعبارات تسير وفق هذه الوتيرة، التي تعتمد على الاستعارة، واستحضار المتناقضات، وتوظيف كل ما هو غريب ومناقض ومشاكس لكل التصورات المعتادة، وفي كل المجالات، الادبية والفنية والفلسفية.

يوتوبيا التاريخ

قبالة هذا التناقض يحضى كتاب سيوران تاريخ ويوتوبيا بصفة الاتساق نوعا ما وهو كتاب غريب على سيوران بكل المقاييس، من ناحية استخدامه للغة واضحة، وتبنيه لافكار ورفضه لاخرى، انه كتاب يتحدث عن الحضارة، التاريخ، الانظمة السياسية، سقوط الدول، الحرية، التقدم، الاحزاب، انه كتاب ربما واضح المعالم في موضوعة فلسفة التاريخ.

"ان الديموقراطية اعجوبة لم لديها شيئا تعطيه، وهي من ثم جنة الشعب وقبره معا. لا معنى للحياة الا بها لكنها تفتقر الى الحياة، سعادة فورية وكارثة وشيكة، تلك هشاشة نظام لا نؤمن به الا وقعنا في مازق معذب"[١٤]

ليس غريبا هذا الموقف المناهض للديموقراطية لدى سيوران فهو الذي يؤمن علانية ان الانظمة الليبرالية لا تنفع الا لشعوب اصابها الترهل والميوعة، فهو اكثر ميلا للانظمة التي تنحى منحى راديكاليا في ادارة شؤون مواطنيها، " كي تتأقلم روسيا مع نظام ليبرالي لا بد لها من ان تضيع قوتها وان تفقد حيويتها، واكثر من ذلك، ان تخسر سمعتها المميزة ان تنسلخ من قوميتها في العمق. وانى لها ان تفلح في ذلك بالنظر الى مدخراتها الباطنية الكاملة واعوامها الالف من الحكم الفردي، ولو نجحت في ذلك افتراضا عن طريق قفزة مفاجئة لتناثرت اشلاء على الفور، امم كثيرة تحتاج كي تحافظ على نفسها وتزدهر الى جرعة من الرعب"[١٥]

ان هذا الموقف الذي يتخذه سيوران من مسألة الديموقراطية، هو موقف شبيه بموقف مكيافلي الذي اعتقد منذ قرون مضت ان الكثير من الشعوب غير مؤهلة لممارسة الديموقراطية، ربما لذات الاسباب التي يقول بها سيوران، لكن مكيافلي في الحقيقة يبدو اكثر تسامحا من سيوران، فهو يشترط في تطبيق الديموقراطية وجود فترة انتقالية قبل تطبيقها كنظام، فترة تعلم ووعي من قبل الشعب، اما سيوران فهو يرفض فكرة الليبرالية والديموقراطية انطلاقا من اعتبارات تتعلق بسياق فكره الذي يرفض الرتابة والنظام والمساواة التي تنتج في ظل هكذا نظام، ناهيك عن نظرته الانتقائية التي تنظر الى الشعوب انطلاقا من تحليلات ربما سايكولوجية للعقل الجمعي والموروث القبل تاريخي الذي يحكم هذا الشعب او ذاك.

فلنتامل تحليله العميق الذي يسوقه في هذا الاطار للشعب الروسي وطبيعته" لا شيء ينهك اكثر من امتلاك الحرية والافراط فيها، كان الشعب الروسي يتالم دون ان يجهد نفسه اذ لا شيء يستحق اجهاد النفس غير التاريخ ولما كان قد أطرد من التاريخ فقد توجب عليه ان يتحمل انظمة الاستبداد الصارمة التي مني بها، كان وجوده خاملا نباتيا، الا انه سمح له بتقوية عوده وتنمية طاقاته ومراكمة مدخراته والخروج من عبوديته باقصى

ما يمكن من المكاسب البيولوجية، كانت الكنيسة الارثوذكسية ذات وجهين، فقد حرصت من ناحية على تخدير الجموع، بينما وضعت نفسها من الناحية الاخرى في خدمة القياصرة، الا ان قدرهم قد تحقق في نهاية المطاف، ان يتم لهم ذلك عن طريق ايديولوجيا ذات مصدر خارجي، المهم في النهاية ان النظام روسي، وانه راسخ في تقاليد البلاد"[١٦]

ان موقف سيوران في هذا الكتاب، يتضمن جانبين اثنين: فمن جانب هو عصي على التصنيف في الاطار العام، ومن جانب اخر يبدو واضحا بشكل ملفت في نصوصه التي يسوقها في هذا الكتاب من موقفه ازاء افكار ومعتقدات هي من الثبات لا تحتاج الى كثير كلام، الا ان رفضه لهذه الافكار ليس رفضا لا يقف على اسس واهية كما يعتقد البعض، فنحن نلرى ان تلك النصوص هي بمثابة محاكمة ومراجعة لتلك الثوابت التي اعتقدنا انها غير قابلة للمراجعة والفحص والنقد، بل تقوم على اساس متين من المنطق والمقبولية العقلية التي تقبل النقاش والجدل، " لا تزدهر الحريات الا في جسد اجتماعي مريض، التسامح والعجز مترادفان، يتجلى ذلك في السياسة كما يتجلى في كل شيء، ان الحرية لا تشغل في مجرى الزمن اكثر مما تشغله لحظة انخطاف في حياة صوفي، انها تفلت منا تحديدا لحظة نحاول الامساك بها والتعبير عنها، فليس في وسع احد الاستمتاع بها دون ان يرتجف"[١٧]

انه تحليل سايكولوجي يستند الى وقائع ومعطيات من الصعب قبولها، الا ن من الصعوبة بمكان ايضاً رفضها او التنصل منها هكذا دون مراجعة، ان اقل ما تضعنا امامه هذه النصوص هو حالة من الشكوكية والارتياب الذي يعزز واقعة التردد في تبني الافكار بسهولة، وليس للفلسفة من مهمة اوضح من هذه المهمة.

الا ان ذلك لا يعني تبني سيوران لنظم دكتاتورية كما يتوهم البعض، فهو من اشرس المفكرين الذين يرفضون تلك النظم" ليس هتلر مهما لذاته بل لما يعلن عنه بوصفه مسودة لمستقبلنا، ونذيرا عن قادم قاتم، وهستيريا كونية، المستبد القاري الذي سينجح في توحيد العالم بواسطة العلم الموظف لا لتحريرنا بل لاستعبادنا"[١٨]، الا ان سيوران بين رفضه للنظم الليبرالية، واستبعاده وقرفه من النظم الدكتاتورية، لا يقدم بديلا وليس غريبا على سيوران هذا الموقف فهو مفكر عدمي بامتياز لا يضاهيه في ذلك احد في عصره.

ولعل ما يختتم وجهة نظر سيوران هو رؤيته اتجاه السياسة بوصفها مجال عمل ادارة الشعوب حيث يقول " للتحول الى رجل سياسة اي للحصول على إهاب طاغية لا بد من خلل عقلي، وللكف عن ذلك لا بد من خلل اخر، اليس الامر في النهاية مسخا لجنون العظمة"[١٩]

الولادة كفعل تمرد

" كلما كففت عن التفكير في الموت، خيل الي اني اغش، اني اخدع احدا في"[٢٠] " اقترفت كل الجرائم باستثناء ان اكون ابا"[٢١] " لماذا كل هذا؟ - لاني ولدت... ان نمطا خاصا من اليقظة هو الذي يؤدي الى وضع الولادة موضع السؤال."[٢٢]

ربما ان هذه العبارات التي تم انتقائها تختزل الكثير من فكر سيوران، تلك الفكرة التي طارت سيوران وطاردها على مدار كتاباته المحشوة بالعدمية والسوداوية المفرطة، فلا يوجد حل في الافق، ولا يعد سيوران بحلول واجوبة للأسئلة التي يطرحها، وان قدم ما يبدو انه جوابا فهو فايروس لسؤال جديد لا يمكن تقصيه والوقوف عنده، فالسؤال عن الولادة وبالتالي الموت سؤال مركزي في كتابات سيوران، "كان استهجان الولادة حاضرا ضمنيا في كل ما كتب سيوران في مشوراه الادبي، لكن سرعان ما يظهر بكل وضوح وقوة في كتابه موجز العفن، ثم يصبح نقده للولادة الهاجس المركزي في "مثالب الولادة" ان الوجود الانساني من وجهة نظره لا يعدو ان يكون سوى ترقيع لما لا يمكن ترقيعه ابدا"[٢٣]

ان وجودنا في هذا العالم هو وجود حتمي لا مناص من الخلاص منه، ولا نمتلك ان نغير ذلك، وهذا ما يستدعي ان نقف ازاء هذا الانوجاد القسري موقفا مناهضا، او ان ننخرط ونتحول الى كائن داجن، من وجهة نظر سيوران، انها ضرورة وقسر لا يمكن الفكاك منه، " ثمت في حدث الولادة نسبة من غياب الضرورة، ما ان نتمعن فيها اكثر مما اعتدنا، حتى نعجز عن كل ردة فعل، مكتفين باطلاق ابتسامة ساذجة"[٢٤]، ابتسامة ساذجة، وجود يركن الى الميوعة والصدفة، او نستمر ونمارس وجودنا كأي كائن اخر، "لو كانت الحشرة واعية، لكان عليها ان تتصدى للصعوبات نفسها، لذلك الضرب من المعضل نفسه الذي يتصدى له البشر"[٢٥]

هل يقدم سيوران بديل لتلك الاعتراضات التي يسوقها طوال كتابه وكتاباته، باشكال مختلفة وصيغ بلاغية متنوعة، بالطبع لا، فليس ذلك من شأنه، ان شانه الوحيد يتمثل في ان يمارس فعل الغضب في الكتابة والعواء المستمر في هذا الوجود الغريب عنا، ان مهمته اثارة السؤال تلو السؤال حول كل ما يبدوا تلقائيا وطبيعيا من حولنا.

خاتمة

كيف يمكن وصف حقل اشتغال سيوران؟ ربما بكونها ممارسة لنوع اخر من الفلسفة تمتزج فيها طاقة الفكر المختزل رموزا واشارات وايماءات، مع اللغة بوصفها فكرا متمظهرا في استعارات وتأويلات لا حصر لها، لقد كان سيوران الفيسلسوف الذي انطلق من فضاء الادب، والاديب الذي بزغ من اعماق الفلسفة، فلا هو يحسب على الفلسفة في اطارها المؤسس، ولا على الادب بوصفه اديبا متمرداً.

هل يمكن تصنيف سيوران؟ نعتقد ان تصنيف سيوران يدخلنا في منطقة لا تؤدي بنا الا الى مزيد من المتاهات، وبالتاكيد نجد انفسنا اكثر اتفاقا واتساقا مع ما يقول به احد الباحثين حين نقرا سيوران نجد انفسنا امام تشكيل لـ سيورانات، بالطبع هنالك سيوران واحد، لكن مجال اشتغاله ولغة كتابته لابد ان تعطي انطباعا بتنوع سيوراني ملفت للنظر، وليس اسلوب الشذرة الا استجابة ملحة للحظة الراهنة العابرة باستمرار لوجود سيلاني لا يمكن القبض عليه باي شكل من الاشكال، لقد قدم هذا المتمرد برأينا المتواضع رؤية مزعزعة لكل الثوابت الراهنة، سيل جارف من الاتهامات، والفجوات والثغرات التي تملأ فضاء انوجادنا القسري في العالم المصاب بداء الخواء.

قائمة المصادر والمراجع

[١] ينظر: ادم فتحي، مقدمة المياه كلها بلون الغرق، ترجمة ادم فتحي، منشورات الجمل، كولونيا _ المانيا، ٢٠٠٣، ص ٩.

[٢] ادم فتحي: مقدمة المياه كلها بلون الغرق، اميل سيوران، ترجمة ادم فتحي، ص١٠-١١.

[٣] المصدر نفسه: ص ١٢-١٣.

[٤] المصدر نفسه: ص ١٣-١٤.

[٥] ينظر: محمد علي اليوسفي: اميل سيوران لو كان ادم سعيداً، مطبعة عبد الكريم اسماعيل، عمان، ط٢، ٢٠١٤، ص ١١-١٦.

[٦] اميل سيوران: زنزانة الوجود، نقلا عن حميد زنار، المعنى والغضب مدخل الى فلسفة سيوران، الدار العربية للعلوم ناشرين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩، ص ٧٣.

[٧] حميد زنار، المعنى والغضب مدخل الى فلسفة سيوران، ص ٤٣.

[٨] اميل سيوران، المياه كلها بلون الغرق، ترجمة ادم فتحي، ص ٢٥.

[٩] المصدر نفسه: ص ٦٠-٦١.

[١٠] حميد زنار: المعنى والغضب مدخل الى فلسفة سيوران، ص ٤٩.

[١١] محمد علي اليوسفي: لو كان ادم سعيدا، ص٦٢.

[١٢] اميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق: ترجمة ادم فتحي، ص ٥٧.

[١٣] المصدر نفسه: ص ٥٣.

[١٤] اميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ترجمة ادم فتحي، منشورات الجمل، بيروت_ بغداد، ٢٠١٠، ص٥٥.

[١٥] اميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ص ٥٤.

[١٦] اميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ترجمة ادم فتحي، ص ٥٢-٥٣.

[١٧] المصدر نفسه: ص ٣٥-٣٦.

[١٨] اميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ترجمة، ادم فتحي، ص ٧١-٧٢.

[١٩] المصدر نفسه: ص ٧٠.

[٢٠] اميل سيوران: مثالب الولادة: ترجمة ادم فتحي، منشورات الجمل، بغداد – بيروت، الطبعة الاولى، ٢٠١٥،٤٠.

[٢١] اميل سيوران: مثالب الولادة، ترجمة ادم فتحي، ص ١١.

[٢٢] المصدر نفسه: ص ٧.

[٢٣] حميد زنار : المعنى والغضب مدخل الى فلسفة سيوران: ص ١٩.

[٢٤] اميل سيوران: مثالب الولادة: ترجمة ادم فتحي، ص ٢٤.

[٢٥] المصدر نفسه: ص ٤٠.